

من وراء البحار

تأثير العامل الجغرافى فى روسيا

يقول دافيدسون هاوستون فى مقال بمجلة «ناشنال ريفيو» عدد نوفمبر : إن الأحوال الطبيعية كان لها تأثير كبير فى تاريخ الأمة الروسية كما كان لها شأن فى تاريخ جميع الأمم . فإنا إذا بحثنا أصل الأمة الروسية وتتبعنا أثر امتدادها حتى صارت إمبراطورية كبيرة ، وجدنا أنها تمت بسلسلة من الاندفاعات كان تطورها اتباعاً لأغراض سياسية ، ولكن اتجاهاتها خاضعة لاعتبارات تتصل بطبيعة البلاد .

فلما أن زاد عددهم وقوتهم أخذوا يتحركون نحو الأراضى المنبسطة حيث المراعى والزراعة ، وبذلك دفعوا باللّوانيين والبولونيين إلى الغرب ، إلى أن وقفتهم الدول الغربية القوية التى كانت قد تألفت . ولكن دولة التتار كانت قد أصابها الضعف فى القرن السادس عشر ، فالتسعت رقعة الروس شرقاً وشمالاً وجنوباً إلى أن شملت أودية أنهر الدنيبر والدون والفولجا وفروع هذه الأنهر .

على أن الاتساع نحو الشمال لم يلبث أن وقف حين وصل الروس إلى المنطقة المتجمدة حيث لا يجيدون إلا موسماً قصيراً لصيد الأسماك ، وحيث تصعب الملاحة مع مجمد الأنهار . وقد وجدوا فى الجنوب قوة من البولونيين واللّوانيين الذين كانوا يحتلون ما يعرف الآن بأوكرانيا ، كما كانت جبال القوقاز واقعة فى أيدي الأتراك والفرس . أما التتار فكانوا على ما أصابهم من ضعف يشغلون أراضى نهر الفولجا فى أسفله . فكان أضعف مكان فيما يحيط بهم هو الأودية الممتدة إلى الشرق من نهر الفولجا فى أعلاه . وعند ما سقطت قازان عاصمة التتار فى أيدي الروس فى القرن السادس عشر ، لم يلبث الروس أن وصلوا إلى خط جبال

ف تلك البطون من الجنس السلافى التى تعرف باسم روسيا الكبرى وروسيا الصغرى وروسيا البيضاء ، كانت تتألف قبل القرن التاسع من عدة قبائل تسكن حوض نهر الدنيبر . وكانت حياة هذه القبائل بدائية وغير منظمة تقوم على صيد حيوانات الغاب واستخراج الأسماك من مياه الأنهار . وكانت هذه الأنهار هى الوسيلة الوحيدة للانتقال والاتصال . وكانت تقوم بين هذه القبائل حروب ومنافسات كما كانت تهاجمها القبائل التى تجاورها . وأخذت هذه القبائل تتجمع فتؤلف عدة إمارات . على أنه كانت تقيم إلى الشمال منها وإلى الغرب قبائل أخرى ذات نزعة حربية هى قبائل الاسكندناف والبولونيين واللّوانيين والطوطون ، وكانت هذه القبائل تغير على أرض القبائل السلافية وتستولى على أجزاء منها ، على حين كانت القبائل السلافية تجد ضغطاً فى جنوبها من قبائل التتار التى استطاعت بين ١٢٣٨-١٤٦٢ أن تسيطر على أراضى الزعماء الروس فى الجنوب . ولكن الروس

استطاعوا فى حى الغابات أن يتجمعوا . وفى حوالى سنة ١٤٨٢ ألفوا منهم اتحاداً ، وانتخبوا أميراً مسكوفياً قيصراً على جميع الروس ، وأخذوا يطردون الجيوش الأوربية وجموع التتار من المساحات التى تكتنفها الغابات . فلما أن زاد عددهم وقوتهم أخذوا يتحركون نحو الأراضى المنبسطة حيث المراعى والزراعة ، وبذلك دفعوا باللّوانيين والبولونيين إلى الغرب ، إلى أن وقفتهم الدول الغربية القوية التى كانت قد تألفت . ولكن دولة التتار كانت قد أصابها الضعف فى القرن السادس عشر ، فالتسعت رقعة الروس شرقاً وشمالاً وجنوباً إلى أن شملت أودية أنهر الدنيبر والدون والفولجا وفروع هذه الأنهر . على أن الاتساع نحو الشمال لم يلبث أن وقف حين وصل الروس إلى المنطقة المتجمدة حيث لا يجيدون إلا موسماً قصيراً لصيد الأسماك ، وحيث تصعب الملاحة مع مجمد الأنهار . وقد وجدوا فى الجنوب قوة من البولونيين واللّوانيين الذين كانوا يحتلون ما يعرف الآن بأوكرانيا ، كما كانت جبال القوقاز واقعة فى أيدي الأتراك والفرس . أما التتار فكانوا على ما أصابهم من ضعف يشغلون أراضى نهر الفولجا فى أسفله . فكان أضعف مكان فيما يحيط بهم هو الأودية الممتدة إلى الشرق من نهر الفولجا فى أعلاه . وعند ما سقطت قازان عاصمة التتار فى أيدي الروس فى القرن السادس عشر ، لم يلبث الروس أن وصلوا إلى خط جبال

ولم تأت سنة ١٩٠٤ حتى كانت منشوريا تحت حماية روسيا ، وكوريا تكاد تقع تحت الحماية كذلك . فهت اليابان لاقتاذ نفسها من روسيا التي كانت تهدد استقلالها نفسه . وبعد أن انتصر اليابانيون صارت لهم السيطرة في منشوريا وكوريا مدة أربعين سنة . ولكن بعد هزيمة اليابان في الحرب الأخيرة أخذ النفوذ الروسى يعود إلى تلك الأنحاء . ويرى من ذلك أن الحدود الحالية للاتحاد السوفيتى كانت نتيجة أحوال جغرافية . ولنلق الآن نظرة على العوامل التى يتوقف عليها ثبات تلك الحدود .

فاذا نظرنا أولاً إلى الغرب وجدنا أن الاتساع الروسى كان نتيجة للمقاومة السياسية أكثر منه نتيجة لمقاومة جغرافية . وقد أدى انهيار الامبراطوريتين الألمانية والنمساوية إلى زيادة النفوذ الروسى . كما أن الشيوعية زادت من نفوذ الروس ، أنها فى ذلك شأن العرب الذين زاد من نفوذهم اعتناق الأمم للإسلام . ولقد بسط الاتحاد السوفيتى نفوذه الاقتصادى على الدول الصغرى المجاورة له . وفى ذلك فائدة كبيرة له فصلا عن ضأن حربى . وما يدل على رغبة الروس فى الوصول إلى الموانى الواقعة على مياه حارة تأييدهم لليوغوسلافيين فى ادعاءاتهم الخاصة بتريست ، وتشجيعهم للالبانيين فى النفوذ إلى مضيق كورفو ، وتأييدهم للبلغاريين فى طلبهم لخرج إلى بحر إيجه ، واهتمامهم بإدارة المستعمرات الإيطالية السابقة فى شمال إفريقيا ، ورغبتهم المستمرة فى السيطرة على بوغازى الدردنيل والبوسفور ، وهى الرغبة التى تعكس صفو العلاقات بين الروس والأتراك .

وإذا اتجهنا إلى آسيا الوسطى وجدنا الروس يهتمون اهتماماً شديداً بإيران حيث موارد البترول فى أذربيجان قد زادت قيمة

الأورال . ولم تأت سنة ١٩٩٣ حتى كان الروس قد وصلوا إلى شاطئ المحيط الهادى . على أنهم وجدوا مقاومة من حاميات المنشو على نهر أمور . واضطر الروس إلى عقد معاهدة مع الصين ، على أن يتسحبوا إلى نهر أرجون ومع ذلك استمروا فى التقدم إلى الشمال الشرقى حتى وصلوا شبه جزيرة كيتشاتكا فى سنة ١٩٩٧ وعبروا بوغاز بهرنج واستولوا على ألاسكا فى القارة الأمريكية فى سنة ١٧٤١ . وظلت فى أيديهم تلك المنطقة إلى أن باعوها للولايات المتحدة فى سنة ١٨٦٧ قبل أن يكتشف الذهب بها .

وفى هذه الأثناء زالت سطوة التتار وضعت قوة البولونيين والتوانيين ، واستولى الروس على الأوكرين وعلى شمال بحر قزوين . ولم يأت القرن السابع عشر حتى كانت روسيا دولة ذات قوة وبأس تستغل أراضي واسعة ، وكانت تعمل لإيجاد وسائل للتجارة . ولذلك انتقل بطرس الأكبر من موسكو إلى بطرسبرج لى يجد نافذة تطل على أوروبا فى بحر البلطيق . وكان يود لو يجد منفذاً آخر للتجارة من البحر الأسود ، غير أن تركيا كانت مسيطرة على البوسفور والدردنيل . ومن هذا العهد أخذت روسيا تتطلع إلى إيجاد طريق لها فى هذا الاتجاه لى تتفادى طرق أنهارها ومياهها الملحة التى لا تصلح طول السنة للملاحة لأنها تتجمد أحياناً .

ولقد استطاعت روسيا فى الشرق أن تتسع عند ما ضعفت الامبراطورية الصينية ، فاستولت على أراض كثيرة فى القرن التاسع عشر ، وتمكنت من إقامة ميناء فلاديفوستوك فى سنة ١٨٦٠ ، حيث أقامت حواجز تقى من الثلج ، فأمكن فتح هذا الميناء طوال السنة ، وأخذت تضغط على منشوريا .

أولاً : إن الحدود الواسعة التي هي - وفي الغرب بصفة خاصة - معرضة للهجوم الحربي والتي يمكن في كل مكان اقتحامها بالأسلحة الحديثة مثل القلاع الطائرة والطائرات الصاروخية ، قد دفعت الروس إلى الحصول على أراض جديدة أو مناطق ، لتحول دون إقامة العدو لقواعد حربية وصناعية . ولذلك كانت روسيا من هذه الجهة مهتمة بفنلندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والجر ورومانيا ومنغوليا ومنشوريا وكوريا واليابان .

ثانياً : إن الحاجة للوصول إلى البحار الحارة تدفع روسيا دفعا شديدا . فقد دل التاريخ على أنه ما من أمة استطاعت أن تزيد من مواردها دون الاتصال البحري مع الأمم الأخرى . فالمحيطات من خير الوسائل للاتصال بين الأمم في حين أن الحدود الأرضية تفصل بينها . وروسيا من بين جميع الدول الكبرى سيئة الحظ من هذه الجهة . فأنهارها الكبيرة ، وهي من أطول أنهار العالم ، تتجمد أربعة شهور أو خمسة شهور في السنة ؛ على حين يكون بعضها قليل المياه في الصيف . ثم إنها تجري في اتجاهات خاطئة ، فبعضها يصب في المنجمد الشمالى وبعضها في البحر الأسود المقتل وبعضها في بحر قزوين الذي هو شبه البحيرة . لذلك ننتظر من روسيا أن تكون دائما الاهتمام بشبه جزيرة البلقان والباوغيز والخليج الفارسي ومنشوريا وشال الصين وكوريا وربما كانت الهند كذلك ؛ إلا إذا تطور الطيران تطورا كبيرا حتى يحل محل الطرق البحرية .

لدى الاقتصاد السوفيتي الذي زاد اتساعا . كما أن إنشاء السكك الحديدية في إيران قد زاد في تحسين الاتصال بين جهات بحر قزوين والمياه الحارة في الخليج الفارسي . ولقد اتخذت روسيا من الاقليات الأذربيجانية والارمينية والتركية في تلك الجهات ، فضلا عن الدعاية الشيوعية ، وسيلة لتزيد من نفوذها في إيران ، لولا وجود النفوذ البريطاني وموقف هيئة الأمم المتحدة أخيراً . ولا تعتبر الحدود المتاخمة للافغانين ثابتة لأمرين : أولهما أنه يفصل بينهما نهر والأنهر ليست حدوداً طبيعية جيدة ، لأن الناس يميلون إلى التكاثر والتكتل على جوانب الأنهر . وثانياً لأن القبائل الساكنة في شمال الأفغان من الأزيك والطنجك قريبة لشعوب السوفييت وليست قريبة في جنسها إلى أهل كابول .

وإذا انتقلنا إلى الشرق وجدنا أن نفوذ الروس في منغوليا صار عظيماً بعد انهيار النفوذ الياباني . وكذلك زاد نفوذهم في منشوريا ، وإن كانوا قد سلموها للحكومة الصينية ، ولكن أعوانهم من الصينيين الشيوعيين قد استطاعوا أن يملأوا هذا الفراغ .

ولم تبق موانع طبيعية تحول دون امتداد نفوذ السوفييت في بلاد الصين . أما كوريا التي كانت خاضعة لليابانيين فإنها منذ سنة ١٩٤٥ انقسمت إلى قسمين : أحدهما يحتله الأمريكيون ، والآخر يحتله الروس والحد بينهما صناعي .

ويمكن تلخيص العوامل الجغرافية التي تسيطر على السياسة الروسية فيما يأتي :

فرنسا وسياستها بعد الحرب

وكان لا يزال بالدينة عدد من جنود الأعداء وهم جميعاً من الروس الذين التحقوا بخدمة ألمانيا ، فوقفوا السيارة ورأوا أحد ركابها واضعاً شارة حركة المقاومة ، فانهالوا عليه بالضرب حتى قتل . وأصيب كاسو بضربة في رأسه فأغمى عليه وترك بين الحياة والموت . ثم طلب كاسو ترك الحديث في هذا الموضوع ، واتجه يشرح رأيه في حالة فرنسا قائلاً :

« قد تدهش لحالة فرنسا ولكن دعني أفسر . فمما لاشك فيه أن هناك قطيعة بين فرنسا وحكومة ديغول ، وأن العلاقة بينهما هي مأساة . وتتخذ حكومة ديغول في معاملتها للشعب الفرنسي هيئة المعلم حين يرى تلاميذ أشقياء »

وقال : قد يفهم الانجليز أن هنالك حركة اندفاعية من جميع الطبقات ترغب في التجديد وليست هذه الحركة مناورة شيوعية أو ما يشابهها .

الواقع أنه تأسست تحت حكم الألمان الأداة الادارية لاستقلال المناطق بأموورها وهي أداة قوية . لذلك أرادت هيئة المقاومة بعد تحرير البلاد أن تستفيد من الفرصة السانحة فتصلح من الأمور وتبدلها بما يشبه أن يكون ثورة ، حتى لا يكون التحرير مجرد رحيل للألمان . وكان أقل ما ينتظر ألا يعود نظام الجمهورية الثالثة من جديد؛ وهذا أدنى ما يجب أن ينتظر بعد حركة التحرير .

ولقد كانت حركة المقاومة تضم جميع العناصر من سائر الأحزاب، فكان من الطبيعي أن يؤمل فيها القضاء على الأحزاب القديمة . وسأله محادثه الانجليزى عن اعترافه في

تنشر مجلة القرن التاسع عشر وما بعده عدة أحاديث أجراها الكاتب سيبان مع بعض الزعماء والكتاب المشهورين في فرنسا . وقد نشرت المجلة في عدد نوفمبر أحد هذه الأحاديث . وستوالى نشر بعضها ، وستصدر الأحاديث جميعاً في كتاب قريباً يصدره سيبان عن حركة التحرير .

قابل الكاتب سيبان الزعيم الفرنسى والأديب المعروف جان كاسو في مارس سنة ١٩٤٥ . وكان كاسو من زعماء حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال الألمانى . وكان يعمل مفتشاً لهذه الحركة في المنطقة الجنوبية من فرنسا . ونظم أول حركة خفية كانت تتصل بلندن لاستقبال الرجال الذين ينزلون بالمظلات . وقبضت عليه حكومة فيشى بعد اكتشاف مستودع كبير للأسلحة بمدينة تولوز ، كان مليئاً بالديناميت والمسدسات . وفى السجن ألف مجموعة من الأناشيد . وانتخب فى سنة ١٩٤٦ رئيساً للجنة الوطنية للمؤلفين . وهو الآن مدير لمتحف الفنون الحديثة بباريس ويتولى رئاسة تحرير مجلة أوروبا .

يقول سيبان إن كاسو رجل لا يعرف الالتواء فى عباراته ، وقد أتى عند ما قابله بزعاجه من الكونيك وأخذ يفرغ ما فيها لنفسه وللضيف . وهو يسكن داراً كبيرة فى ضواحي تولوز مع زوجته التى تعد من خير العازقات على البيانو .

ابتدأ سيبان حديثه بأن سأله عن الجرح الذى أصابه فى رأسه ولم يكده يشفى منه . فقال ضاحكاً : إنه أصيب به حينما كان يقود سيارته قبيل تحرير مدينة تولوز ، وقد جازف إذ وضع عليها الراية الفرنسية المثلثة الألوان ،

أو عن أنه قصد في الليلة السابقة أحد
المواخير .

وفوق هذه الأمور يجب ألا ننسى الهدنة .
ولم نعد نستطيع منذ سنة ١٩٤٠ أن نلوم
أحدًا . فقد شعر الفرنسيون بأن الهزيمة
كانت منظمة . وبمثل هذه الهزيمة هي أخجل
المزائم في التاريخ وقد جادت على أثرها
أربع سنوات قضيت في هامة العار .

فسأله الكاتب الإنجليزي أهو يرغب في
المخالفة الشيوعية؟ فقال له جان كاسو : إنه
يرى فيما يتعلق بالشيوعيين ألا تثير حركة
المقاومة شقاقاً معهم ؛ فان هؤلاء الشيوعيين
قد بذلوا في الحرب مجهوداً كبيراً وسياساتهم
هي عظمة فرنسا . ثم قال : إن المحافظين في
فرنسا يختلفون عن المحافظين في إنجلترا .
فالأولون رجعيون لا يعملون للتقدم على
حين لا يتحرج الآخرون في إنجلترا في قبول
أنظمة حديثة .

وصرح كاسو فيما يتعلق بالمستقبل ، أن
الأمل معقود على أن تسترد إسبانيا
وإيطاليا حريتهما ، فتكونا أساساً لتجدد
الغرب . وعند ما سئل وماذا يكون من
شأن الروس؟ قال : إنهم مشغولون بالبلقان .
ولذلك فان إيجاد جماعة ديمقراطية غربية
تسير بالثورة حسب غرضها لا حسب
قواعد مرسومة قد يكون يسيراً . وستكون
إسبانيا محك مثل هذه السياسة . ولعل إنجلترا
تؤيد مثل هذه الحركة الديمقراطية .

أثناء الحديث بأن حركة المقاومة كانت
تتألف من الأقلية ، فأجاب كاسو : أجل !
ولذلك وجدت الحركة صعباً عند ما أرادت
أن تتولى السلطة ؛ إذ كان ينقصها تأييد
الجماهير . ولقد ارتكبت الحركة بعض
الأخطاء بأن اتبعت بعض الطرق غير
النظامية بعد التحرير ، وهي طرق كانت
واقية بالغرض قبله . وكان الواجب على
حركة المقاومة أن تعمل لاسترضاء الجماهير ،
وكان من نتيجة ذلك أن أخذت الحزبية
القديمة تتجمع .

قال الكاتب الإنجليزي : إن الانجليز
لا يفهمون حركة التطهير . فقال كاسو :
لقد ظلت فرنسا أربع سنوات خاضعة للخيانة
والأكاذيب بل ظلت أكثر من ذلك .
فقبل هذه المدة كانت هنالك الحبشة وإسبانيا
ومونيخ . وقد غلبت فرنسا في أعز شيء
لديها ؛ وليست فرنسا بممسحة للآقدام .
ولقد شهدت الألمان وهم يسودونها بسبب
التعاون الداخلي من رجال فرنسيين . وفيما
يتعلق بالصحافة التي يدهش الأجانب
لشعور الوطنيين بالعداء نحوها ، كانت هذه
الصحافة قد سممت الرأي العام . وكان
الكاتب موراس ذو النزعة الملكية
وأمثاله يسيطرون على رجال السياسة .
وأؤكد لك أن رجلاً مثل بوانكاريه كان
يتصنع في سرعة جريده أكسيون فرانسيز
في الصباح ليرى ماذا تقول عن زوجته

أنطون الجميل

كان خطباً فادحاً ذلك الذى ألم بالأدب العربى والسياسة الشرقية والصحافة المصرية ، حين توفى المغفور له أنطون الجميل باشا ، رئيس تحرير « الأهرام » فى الثالث عشر من شهر يناير .

وقد كانت وفاته فجاءة غير منتظرة ؛ إذ كان الفقيه عشيّة اليوم الذى توفى فيه كاحسن ما يكون الانسان صحة ، وكأقوى ما يكون قوة ، وأكل ما يكون نشاطا .

فقد شهد جلسة المؤتمر بجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وعمل فى « الأهرام » كما تعود أن يعمل إلى أن قارب الليل ثلثيه ، وعاد إلى داره فاذا الموت ينتظره فيها .

وكان أنطون باشا الجميل أديباً مترفاً الأدب رفيع الفن صافى الذوق مرهف الطبع .

ظهر ذلك فى شبابه حين أصدر مجلة « الزهور » واتصل ذلك فى حياته كلها ، فكان أروى الناس لبيت جيد واحفظاته لفصل رائع كما كان أرقهم منطقاً وأعذبهم حديثاً .

وقد عمل فى مناصب الدولة ؛ فكان نموذجاً للموظف المثقن لعمله فى أمانة وحذق وفطنة . ثم ترك مناصب الحكومة وتولى رئاسة تحرير « الأهرام » فكان مثالا للصحنى البارع الفطن والسياسى الماهر اللبق نفذ « بالأهرام » فى رشاقة أى رشاقة من أشد المواقف السياسية فى مصر والشرف دقة وحرجا . وعين فى مجلس الشيوخ ، فكان برلمانيا ماهرا لبقا موقفا بين المختصمين مؤلفا بين المختلفين . وعين فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فكان ابتسامته متصلة فى جوه الذى يأخذه الجد من جميع أقطاره . وكان فيه كما كان فى مجلس الشيوخ موقفا حين يكون الاختلاف ورفيقا حين تشدد الخصومة . وكان مكتبته فى « الأهرام » ناديا سياسيا أديبا من أحفل الأندية فى الشرق العربى وأبعدها أثرا فى الحياة العامة والخاصة وكان على هذا كله رفيقا بالشباب عطوفا عليهم موجها لهم . وكان أوفى الناس لصديق وأحفظ الناس لسر وأحسنهم محضرا وآمنهم على غيب . فليس غريبا أن تكون المصيبة فيه عامة والمحنة به شاملة ، وأن بأسى لفقاهه أصحاب الأدب والسياسة والصحافة فى مصر والشرق العربى ، بل العالم الاسلامى كله وبيئات كثيرة من بيئات الأدب والصحافة فى الغرب .

أحسن الله عزاءنا عن فقده وألهمنا جميل الصبر على مصيبتنا فيه .